مجلة
دراسات إنسانية

تصدرعن جامعة مستغانم
ISSN: 2437-119X

العـدد: 03 (2017)، ص ص60- 71

حفريات معرفية في معنى الآخر

زكي الميلاد*

رئيس تحرير مجلة الكلمة. السعودية

تاريخ الاستلام: 2017/01/05 تاريخ النشر: 2017/12/20

الملخص:

تحاول هذه الورقة تجديد النظر المعرفي لمفهوم الآخر، بطريقة تتخذ من التواصل والتعارف نهجا وسبيلا، التواصل لنبذ القطيعة، والتعارف لنفي الجهل، في النظر والعلاقة مع الآخر. وذلك بالتركيز على ثلاثة جوانب أساسية ومتكاملة، هي: الجانب الأخلاقي يؤكد فيه على تلك الأبعاد الإنسانية المشتركة بين البشر التي تلغي كل أشكال التمايز والتفاضل والتعالي في النظر والعلاقة بين الناس، وذلك على قاعدة أن الذات في منزلة الآخر، والآخر في منزلة الذات. والجانب الفكري يتحدد من خلاله مفهوم الآخر وبصورة رئيسية في تلك الاختلافات الفكرية التي تحدث بين المجموعات البشرية، وهي اختلافات لا ينبغي أن تفرق بين البشر، وتؤدي إلى الحروب والنزاعات. والجانب النهضوي يركز على العلاقة مع الآخر، ينبغي أن تتصل بالمحددات النهضوية، باعتبار أن الآخر يمثل معرفة وتقدما وتمدنا.

الكلمات الفتاحية: حفريات معرفية؛ الذات؛ الآخر؛ الأخلاق؛ الفكر.

Abstract :

This paper attempts to renew the cognitive consideration of the concept of the other, in a way that adopts communication and acquaintance as an approach and a way, communication to reject estrangement, and acquaintance to negate ignorance, in consideration and relationship with the other. By focusing on three basic and complementary aspects: The ethical aspect emphasizes those human dimensions common to humans that cancel all forms of differentiation, differentiation and transcendence in consideration and the relationship between people, on the basis that the self is in the status of the other, and the other is in the status of the self. The intellectual aspect through which the concept of the other is determined, mainly in those intellectual differences that occur between human groups, differences that should not differentiate between humans, and lead to wars

* **زكي الميلاد**، رئيس تحرير مجلة الكلمة. المملكة العربية السعودية almilad@almilad.org

and conflicts. The renaissance aspect focuses on the relationship with the other, which should be related to the renaissance determinants, given that the other represents knowledge, progress and urbanization.

Keywords: cognitive fossils; Self; the other; Moral; thought.

1. مفهوم الآخر.. بين السلب والإيجاب

يعد مفهوم الآخر أحد أكثر المفاهيم حضورا وتداولا في عالمنا اليوم, ويجري الحديث عنه في مختلف المجتمعات والثقافات, وبات يتصل بالعديد من المجالات والميادين ويتلون بها, ففي المجال السياسي هناك حديث عن الآخر السياسي, وفي المجال الديني هناك حديث عن الآخر الديني, وفي المجال الفلسفي هناك حديث عن الآخر الفلسفي, وهكذا في المجال الثقافي والاجتماعي والاقتصادي وغيرها.

كما يرتبط هذا المفهوم ويتداخل بالعديد من الحقول المعرفية كالفلسفة, والدراسات الثقافية, والنقد الثقافي والأدبي, والتحليل النفسي وغيرها, ويدرس ويعتنى به في هذه الحقول, ودخل حديثا في المعاجم الثقافية والأدبية والفلسفية, بوصفه مفهوما ومصطلحا له ملامحه وبنيته المفهومية والدلالية والتاريخية.

وعقدت حول هذا المفهوم وما تزال تعقد العديد من الندوات والمؤتمرات والحلقات, وعلى النطاقات كافة, الوطنية والعربية والإسلامية والدولية, كما نشرت حول هذا المفهوم وما تزال تنشر العديد من الكتابات والدراسات والمؤلفات بصور ومقاربات مختلفة, وبلغات العالم المتعددة.

ولا شك أن العولمة والتطورات المذهلة في ثورة المعلومات وشبكات الإعلام وتقنيات الاتصال, أسهمت بفاعلية كبيرة في إثارة هذا المفهوم, وتحريكه ولفت الأنظار إليه بين مختلف المجتمعات والثقافات, وذلك لكونه شديد الصلة بمسألة الهوية التي تفجر الحديث عنها مع انبعاث تيار العولمة, وأصبح هناك تلازم في الحديث بين العولمة والهوية.

وفي ظل الانطباعات التي تصور أن العالم بات شديد التداخل والترابط بين أجزائه المتباعدة, وتحول إلى ما يشبه القرية العالمية المتصاغرة مع مرور الوقت, الوضع الذي غير جذريا منظورات الرؤية لمفهوم الآخر, فلم يعد الآخر خارج الأسوار المحصنة, أو ذاك الذي تفصلنا عنه تلك المسافات البعيدة, أو ذاك الذي تحول بيننا وبينه البحار والمحيطات الممتدة على مدى البصر, أو الذي تحول بيننا وبينه الوديان والجبال الشاهقة, أو الفلول والصحاري الشاسعة, فقد بات الاحتكاك بهذا الآخر يحدث في كل لحظة, وفي كل مكان, وبكثير من الوسائط المباشرة وغير المباشرة, السمعية والبصرية, الشفهية والمكتوبة, وبلغات مختلفة.

من هنا كانت الضرورة للتوقف عند هذا المفهوم وفحصه, لمعرفة حده وحدوده, وكشف هويته وماهيته, وتحديد علائقه وتداخلاته.

وأول ما يستوقف الانتباه هنا, التساؤل التالي: هل مفهوم الآخر هو تسمية سلبية أم إيجابية؟ وهل يستبطن هذا المفهوم قدحا وذما واستنقاصا أم لا؟ وهل يحدث فصلا وتباعدا وقطيعة أم لا؟ وهل يتضمن إلغاء ونفيا واستبعاداً أم لا؟

في الانطباع العام قد يوحي مفهوم الآخر بالطابع السلبي, وقد يشير إلى تلك الدلالات السلبية أو بعضها, وأشار إلى هذا المنحى ما جاء من تعريف لمفهوم الآخر في كتاب (دليل الناقد الأدبي), فبعد تتبع لاستعمالات هذا المفهوم في دراسات بعض المفكرين الفرنسيين المعاصرين مثل سارتر وفوكو وجاك لاكان, الذين شاع عندهم هذا المفهوم أكثر من غيرهم, ينتهي الكتاب بالقول: يرى المعنيون بأمر هذا المصطلح, أن الآخر في أكثر معانيه شيوعا يعني شخصا آخر, أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحدة, وبالمقارنة مع ذاك الشخص أو المجموعة يتحدد الاختلاف معه أو معها, وفي مثل هذه الضدية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر, وإعلاء قيمة الذات أو الهوية, ويشيع مثل هذا الطرح في تقابل الثقافات خاصة(الرويلي والبازعي، 2002: ص23).

قد يكون هذا المعنى هو السائد في مقالات الأوروبيين المعاصرين, لكن ليس بالضرورة هو المعنى الثابت والمتفق عليه في تحديد ماهية هذا المفهوم.

ومن جهتي, فقد وجدت أن هذا المفهوم يحتمل كلا الوجهين السلبي والإيجابي, فالجانب السلبي بات واضحا ومعروفا, أما الجانب الإيجابي فيتحدد في النظر إلى الطرف المغاير بعيدا عن التسميات والتوصيفات والكنى والألقاب غير المفضلة وغير المستحسنة, والتي لا يرتضيها هذا الطرف, ولا يقبل بها, وقد يرى فيها قدحا أو ذما أو تنابزا بالألقاب.

فبدل وصف الطرف الآخر المختلف أو المغاير, بأوصاف وتسميات مثل العلماني أو الماركسي أو الكافر أو الملحد أو المشرك أو الحداثي أو الوجودي أو غيرها من التسميات والتوصيفات الأخرى, بدل كل ذلك يأتي وصف الآخر بقصد التجرد والتعالي والتنزه عن إطلاق مثل هذه التسميات والتوصيفات وغيرها التي قد لا تكون محبذة.

2. مفهوم الآخر.. بين الأخلاق والفكر

عند النظر في مفهوم الآخر, يمكن الفصل والتمييز بين جانبين أساسيين لا بد من الإشارة إليهما, والتأكيد عليهما في تكوين المعرفة بهذا المفهوم, وفي طريقة التعامل معه, وهما الجانب الأخلاقي والإنساني من جهة, والجانب الفكري والثقافي من جهة أخرى.

في الجانب الأخلاقي والإنساني ليس هناك ما يسمى بالآخر, ولا ينبغي إطلاق مفهوم الآخر في هذا الجانب, وذلك لأن الطبيعة الإنسانية هي واحدة وثابتة من حيث الجوهر والخلق والتكوين, ولا تختلف أو تتمايز بين جميع البشر, وهذا ما يعرفه البشر أنفسهم, منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض, ومهما اختلفت ألسنة الناس ولغاتهم, ألوانهم وأعراقهم, مدنياتهم وثقافاتهم.

وليس هناك إنسان غير بني الإنسان, فالخلق كلهم عيال الله, فطرهم على فطرته ولا تبديل لخلق الله, وخلقهم في أحسن تقويم, وجعلهم على أحسن صورة.

ومن هذه الجهة, فإن النظرة الأخلاقية تنفي إطلاق مفهوم الآخر بين البشر على أساس اللون أو العرق أو اللسان, وترفض وتواجه من يقبل أو يتبنى مثل هذه التصورات وهذه الأفكار, ومن يتحدث عنها أو يميل ويشير إليها.

وعند العودة إلى القرآن الكريم نجد أنه استعمل تسمية بليغة جدا, وفي غاية الدقة, لا مكان فيها ولا وجود لمفهوم الآخر, ولا تعطي إيحاء به على الإطلاق لا من قريب ولا من بعيد, وهي تسمية (الناس) التي وردت وتواترت مرارا في السور القرآنية المكية والمدنية, وتسمت بهذه التسمية آخر سورة في هذا الكتاب المجيد, وتبوأت مكان آخر كلمة فيه, إذ أصبح يقال إن آخر كلمة في القرآن هي كلمة (الناس), في دلالة على أهمية هذه الكلمة, وقيمة حقها الدلالي, وهذا ما لم يلتفت إليه كثيرا!

ووجه البلاغة والدقة في كلمة (الناس) التي جاءت تعبيرا عن اسم الجنس البشري, أن هذه الكلمة تختلف وتتمايز عن سائر الكلمات القريبة منها والتي تدور في فلكها, أنها لا تقبل التجزئة أو التثنية أو الإضافة أو التقابل على مستوى اللغة, كما هو حال كلمات (الأمة والمجتمع والشعب والجمهور.. وغيرها), فكلمة الأمة تقبل التثنية فيقال أمتان, وتقبل الجمع فيقال أمم, وتقبل الإضافة فيقال أمة عربية وأمة إسلامية, وهكذا الحال مع كلمات المجتمع والشعب والجمهور, وهذا بخلاف كلمة (الناس) التي لا تقبل التجزئة والتثنية, وليس لها كلمة تقابلها, والمراد منها الإشارة إلى العموم والاستغراق دائما, أي الناس كافة دون أي وصف زائد أو إضافة أو تمايز.

بمعنى أن كلمة (الناس) هي الكلمة الوحيدة التي تستغرق عموم البشر, فلا مجال فيها لشيء اسمه الآخر, أو للحديث عنه, ولا أدري إن كان يوجد في اللغات الأخرى كلمة تشابه هذه الكلمة من جهة العموم والاستغراق في النظر إلى عموم الناس, وأشك في ذلك.

ويتأكد هذا الموقف الأخلاقي والإنساني في النظر إلى مفهوم الآخر, بالاستناد إلى المقولة التي تروى عن الإمام علي عليه السلام, حين يصنف الناس, بقوله: الناس صنفان إما أخ لك في الدين, وإما نظير لك في الخلق, فهذه المقولة تجعل الناس ينظرون لأنفسهم من خلال

رابطتين لا ثالث لهما, والثالث مرفوع كما يقول المناطقة, وهما رابطة الاشتراك في الدين, ورابطة الاشتراك في الخلق.

والحكمة البالغة في هذه المقولة, أن رابطة الاشتراك في الدين, لا تلغي رابطة الاشتراك في الخلق, بل إن رابطة الاشتراك في الدين هي التي تفتح وعي الإنسان على رابطة الاشتراك في الخلق, وتجعل منها منظورا له في رؤية الناس والعالم.

وهذا يعني أن هذه المقولة ليست بصدد الإشارة إلى مفهوم الآخر, وإنما جاءت لكي ترتفع بوعي الإنسان بعيدا عن مفهوم الآخر, بكل ما يحمل هذا المفهوم من مضمنات فكرية.

لهذا جاز القول أن مفهوم الآخر ليس له مجال أو مكان أو اعتبار في الجانب الأخلاقي والإنساني, ولا ينبغي تحكيم هذا المفهوم والتعامل به في هذا الجانب.

من هنا فإن مفهوم الآخر إنما يتحدد في الجانب الفكري والثقافي, ويتأطر به بشكل خاص, بوصفه المفهوم الذي يشير بصورة أساسية إلى الاختلافات الفكرية والثقافية بين الأفراد أو المجموعات البشرية, الصغيرة أو الكبيرة, وقد تتلون هذه الاختلافات تارة بلون سياسي, وتارة بلون اقتصادي, وتارة بلون اجتماعي, وتارة بلون آخر أيضا.

وربط مفهوم الآخر بالجانب الفكري والثقافي, يستند على خلفية أن هذا المفهوم هو الذي يشير إلى تلك الاختلافات الفكرية والثقافية الفارقة والفاصلة التي تظهر بين المجموعات والجماعات البشرية, ولا يتعلق بالاختلافات البسيطة أو السطحية أو العابرة.

ويكشف عن ذلك طريقة التعاطي بهذا المفهوم بين المجموعات المختلفة, فهو لا يجري التعامل معه عند هؤلاء إلا على أساس الاختلاف الفكري والثقافي الفارق والفاصل بين هذه المجموعات.

3. الآخر.. بوصفه الذات

من هو الآخر الذي قفز إلى أذهاننا, وبدأنا لا نتوقف في الحديث عنه؟ وماذا نريد من الحديث عن الآخر؟ هل نريد اكتشاف أنفسنا من خلال البحث عن وجود الآخر, باعتبار أن معرفة الآخر هي جزء من معرفة الذات, وأن معرفة الذات لا تكتمل إلا بمعرفة الآخر؟

أم نريد معرفة من يكون هذا الآخر, نوعه وفصله وجنسه وشكله؟ وأين يختلف معنا وأين يتفق؟ وأين يفترق معنا وأين يشترك؟

أم نريد أن نقول: إننا أحسن وأفضل من هذا الآخر أو ذاك, لكي نطمئن على حالنا ونحمد الله على ما نحن عليه؟

وهل نريد أن نقرب المسافات التي تفصلنا عن الآخر؟ أم نريد أن نباعد بيننا وبينه, اتقاء لشره ودفعا لضرره علينا؟ وقبل هذا كله, من أين جاء مفهوم الآخر؟ وهل هناك شيء اسمه الآخر بين البشر والناس, الذين خلقهم الله من نفس واحدة؟.

هذه التساؤلات, ينبغي أن نطرحها على أنفسنا, حين نريد الحديث عن معنى الآخر, لأننا جميعا في لحظة واحدة نمثل الآخر, وجميعا نمثل الذات. فالآخر بالنسبة إلينا هو الذات بالنسبة لمن أعطيناهم هذا الوصف, والذات بالنسبة إلينا هي الآخر بالنسبة إلى الناظر إلينا.

بهذه الطريقة ينبغي أن ننظر إلى الآخر, النظرة التي تستحضر الذات في مفهوم الآخر, ولا تجعل من الذات مفهوما متعاليا أو فوقيا, أو يعطي الذات صفة التفاضل والتمايز, وحتى لا نقع في إشكالية الإلغاء أو الإقصاء أو الاستعداء.

وهذا يعني أن الآخر ليس من نقول عنه هو أو هم, وإنما الآخر من نقول عنه أنا ونحن أيضا, والغير الذي يأتي بمعنى الآخر يشملنا نحن وهم, فلا ينبغي أن نخرج أنفسنا من مفهوم الآخر, فنحن والجميع جزء من هذا المفهوم.

ولا شك أن النظر إلى الآخر بهذه المنطق, هو الذي يصحح صورة الآخر, ويكسب هذه الصورة تحسبا واحترازا.

والقصد من وراء ذلك, أن نثبت طريقة عقلانية في النظر إلى الآخر, نلتزم بها نحن حينما نكون في منزلة الذات, ويلتزم بها من جهة أخرى, أو هكذا يفترض أن ينظر إلينا, حينما نكون نحن في منزلة الآخر.

والمشكلة دائما كانت وما تزال حينما نضع أنفسنا في منزلة الذات, ونتزه أنفسنا من منزلة الآخر, وجميعنا معرض في أن يصاب بهذه الآفة, وقد نكون جميعا وقعنا فيها بالفعل, ولا ينبغي أن نبرئ أنفسنا.

والقرآن الحكيم يدفعنا دوما لمثل هذا الموقف في العديد من آياته الكريمة, كقوله تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)(سورة النجم. الآية 32)، وقوله تعالى: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون)(سورة سبأ. الآية 25.24)، وقوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)(سورة الحجرات. الآية 13).

هذه الآيات الثلاث, واحدة ناظرة إلى الذات في سياق النهي عن الادعاء بتزكية النفس, والثانية ناظرة إلى المصير في سياق إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين, والثالثة ناظرة إلى وحدة الأصل الإنساني في سياق الدعوة إلى التعارف بين الناس كافة.

وفي آثار الفكر الإنساني المعاصر, لفت انتباهي كتاب للمفكر الفرنسي بول ريكور عنوانه: (الذات عينها كآخر) على ترجمة, أو (الذات نفسها كآخر) على ترجمة أخرى. وقد جاء هذا الكتاب في تحليل البعض, بعد أن وجد ريكور نفسه, في وضع يسمح له بقيادة الحوار المثلث, بين الفكر التأملي الفرنسي, والفلسفة الألمانية, والفلسفة التحليلية الأنكلو. سكسونية.

ويقابل مقولة ريكور الذات نفسها كآخر, مقولة الآخر بوصفه الذات.

4. الآخر.. وتلازم القراءتين

تغيرت اليوم صورة العلاقة مع الآخر, ولم يعد الآخر ذلك الذي نستطيع أن نفصل أنفسنا عنه, ونضع بيننا وبينه حواجز ومسافات, فقد أصبح هذا الذي نصطلح عليه بالآخر حاضرا معنا, وفاعلا ومؤثرا في حياتنا ومحيطنا وبيئتنا, في ظل عالم شديد الترابط والتداخل والتفاعل, كما لو أنه في صورة قرية كونية تتصاغر باستمرار, وهذه هي الصورة الافتراضية التي جاءت العولمة للإعلان عنها, والتبشير بها.

ومن هنا كان لا بد من تجديد نظرتنا إلى الآخر, ومن التصورات والأفكار التي تعيننا في إنجاز مثل هذه المهمة:

أولا: في العلاقة مع الآخر نحن دائما أمام قراءة مزدوجة, قراءة نابعة من الذات, وقراءة نابعة من الآخر, بمعنى لا يكفي أن نحدد كيف ننظر إلى الآخر ونتعامل معه, بل لا بد أن ندرك كيف ينظر الآخر إلينا ويتعامل معنا.

فنظرتنا إلى الآخر تؤثر في طبيعة نظرة الآخر إلينا, كما أن نظرتنا إلى أنفسنا هي الأخرى تؤثر في طبيعة نظرة الآخر إلينا. وبقدر ما نحن بحاجة إلى تصحيح نظرة الآخر إلينا, بقدر ما نحن بحاجة أيضا إلى تصحيح نظرتنا إلى الآخر.

هذه هي القراءة الفعالة والمؤثرة في تصحيح العلاقة والصورة بين الذات والآخر, أما القراءة الأحادية, والتي تكون من طرف واحد, فإنها لا تستطيع أن تصل إلى ذلك الآخر وتؤثر في قراءته, وتبني جسور التعارف والتواصل معه.

ثانيا: إن الآخر ليس جوهرا ثابتا, ولا يمثل حالة كلية, ساكنة وجامدة, وإنما هو محكوم بصيرورة زمنية وتاريخية, يتغير فيها حال الآخر وطبيعته من زمن إلى آخر, ومن طور تاريخي إلى طور آخر.

وهذا يعني لا يمكن أن نفهم الآخر بالعودة إلى الماضي والتاريخ والتراث, ونكتفي بهذا القدر من المعرفة, كما لا يمكن أن نكتفي بما لدينا من معرفة جاهزة وحاضرة, ونعتمد عليها بصورة كلية وثابتة. لأن الآخر في حالة تحول وتغير بحسب قوانين الصيرورة التاريخية, فغرب

القرن التاسع عشر مثلا, غرب عصر الأنوار, يختلف عن غرب النصف الأول من القرن العشرين, غرب عصر الثورة الصناعية, والذي يختلف بدوره أيضا عن غرب النصف الثاني من القرن العشرين, غرب عصر الحداثة, وهكذا إلى غرب القرن الحادي والعشرين, غرب ما بعد الحداثة.

وهذا يدعونا إلى أن نجدد فهمنا ومعرفتنا بالآخر, حتى لا نقع في إشكالية الصور النمطية الجامدة والساكنة في فهم الآخر. والحاجة إلى هذه المعرفة قائمة, باعتبار أن معرفة الآخر هي جزء من معرفة الذات, وأن معرفة الذات لا تكتمل إلا بمعرفة الآخر.

ثالثا: إن الآخر لا يمثل حالة واحدة, متحدة لا تقبل التجزئة والتفكيك, وإنما يمثل حالة متنوعة, تقبل التحديد والتصنيف. فهنالك الآخر الذي يتقدم ويتفوق علينا, بين من يتفوق علينا في ميادين المعرفة والعلوم كالغرب مثلا, وبين من يتفوق علينا في ميادين الصناعة والتقنية كاليابان مثلا, وبين من يتفوق علينا نهضة وتقدما وبات يتجاوزنا كالصين مثلا.. إلى غير ذلك من نماذج وتجارب.

والنظر إلى الآخر في مثل هذه الحالات, هو من أجل الوصول إلى تلك المعرفة, وإلى ذلك التقدم والنهوض, ومحاولة الاقتباس والاستلهام منه, والتثاقف والتفاكر معه, وهذا يعني أن الآخر يمثل لنا حاجة حقيقية, يدعونا إلى الانفتاح عليه, والتواصل معه.

5. الآخر.. وإعادة الاكتشاف

لعلنا اليوم بأمس الحاجة للنهوض بمراجعات جذرية وعميقة وجادة, تعيد لنا فهم الآخر والتعرف عليه, واكتشافه بصورة مختلفة, عن تلك الصورة النمطية المتوارثة والملتبسة. ولعلنا أيضا قد تأخرنا في إنجاز مثل هذه المهمة التي باتت اليوم في منزلة الضرورة, وأصبحت شرطا لتجاوز ما أصاب الفكر الديني من أزمة ومحنة تجلت في انبعاث ظواهر التطرف والغلو والتكفير، هذا على مستوى الذات، وشرطا للخروج من المأزق الحاد الذي جعلنا وكأننا في عداء مع العالم، أو العالم في عداء معنا، وهذا على مستوى الآخر.

فهناك تراث متراكم في الخطاب الثقافي والديني والتاريخي، لا يرى في الآخر إلا كافرا ومشركا، ضالا ومبتدعا، عدوا ومتآمرا، لا ينبغي التعامل معه إلا بمنطق الخصومة والقطيعة والصدام، وتطبيق قاعدة عقوبة هجر المبتدع.

وقد تكرس بسبب هذا الخطاب كراهية الآخر، وإلغاؤه وإقصاؤه كليا وبشكل تام وصارم، لا يسمح لإعطاء هامش من المرونة أو المراجعة، أو حتى نسبية الفهم. فالحوار الإسلامي المسيحي كان مرفوضا، والتقريب بين المذاهب الإسلامية كان ممقوتا, وحتى الحوار بين الحضارات كان ممنوعا أو غير مرحب به.

لذلك فنحن أمام مهمة تستدعي منا التحول والانتقال من إلغاء الآخر إلى اكتشافه، ومن القطيعة مع الآخر إلى التواصل معه، ومن الصدام مع الآخر إلى التعارف معه.

ولإنجاز هذه المهمة يتطلب إدراك الأبعاد التالية:

أولا: إن الخطاب الذي يلغي الآخر، ليس باستطاعته بالتأكيد, أن يبني وحدة وطنية، ويشكل نسيجا مجتمعيا متماسكا، أو يصنع أمة متمدنة, ومتفاعلة مع العالم، مندمجة في المجتمع الدولي, مواكبة لروح العصر، ومتواصلة مع المعرفة الإنسانية.

ثانيا: علينا أن نعلم أن الآخر ليس شرا محضا, ونحن لسنا خيرا محضا. بهذا المعيار ينبغي أن ننظر إلى الآخر ونتعامل معه، وننظر لأنفسنا ونتعامل معها. ولا يجوز أن نزكي أنفسنا, وقد نهانا القرآن الكريم عن ذلك، في قوله تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى)(سورة النجم. الآية 32)، ودعانا من جهة أخرى إلى التعارف على مستوى الناس كافة شعوبا وقبائل: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)(سورة الحجرات. الآية 13).

لهذا ينبغي أن نتخلى عن الطريقة التي ننظر بها لأنفسنا حين نبالغ في تزكيتها، وفي الطريقة التي ننظر بها إلى الآخر حين نبالغ في تجريحه.

ثالثا: مراجعة وتصحيح المفاهيم، التي كرست في خطابنا الثقافي والديني، القطيعة والصدام مع الآخر، خصوصا تلك المفاهيم التي بالغنا كثيرا في تطبيقها والاستناد إليها، ولعل في

مقدمة هذه المفاهيم, مفهوم الولاء والبراء، الذي يجري التعامل معه كما لو أننا ما زلنا في عصر الإسلام الأول، في حين أن الواقع ليس كذلك على الإطلاق.

رابعا: التأكيد على البعد الإنساني والأخلاقي في النظر والعلاقة مع الآخر, وهو البعد الذي ليس له قوة التجلي في خطابنا الثقافي والديني. في حين أن الدين هو المعاملة, وأن الله يأمر بالعدل والإحسان, وأن النبي (ص) إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

خامسا: لا يمكن تجاوز هذه المحنة التي أصابتنا، إلا بالتحول والانتقال، من حالة الأحادية إلى حالة التعددية، من الأحادية التي لا تتيح مجالا للآخر، ولا تتواصل معه، فهذه الأحادية هي التي كرست الجمود والانغلاق، وكانت سببا للاحتقان والتأزم الذي أصابنا، فلابد من التحول من هذه الأحادية إلى التعددية، التي فيها تجليات الثراء والتجدد والإبداع، وفيها أيضاً اكتشاف الآخر والتعرف عليه.

المراجع:

. الرويلي، ميجان والبازعي، سعد.(2002). **دليل الناقد الأدبي**، بيروت: المركز الثقافي العربي.

. سورة الحجرات. الآية 13.

. سورة النجم. الآية 32.

. سورة سبأ. الآية 25.24.